

الإهداء

إليه ...

في أعماق «أحضان» مصر

باحثًا عن الحقيقة

أهديه قبسًا من نور «الحقيقة»

عاصم علاء



هنري مورجنتاؤ، السفير الأميركي في القسطنطينية
١٩١٣ حتى ١٩١٦

المقدمة

ما تزال مذكرات الدبلوماسيين والسفراء تحتل مكانة مرموقة بين مصادر التاريخ، خاصة التاريخ السياسي، باعتبار أصحاب هذه المذكرات أناس صنعوا الأحداث، أو شاركوا في صنعها، أو هم - على الأقل - كانوا قريين من صنعها، وعاشوا في كواليس المسرح السياسي؛ فكان لهم دور في الظل، ربما هو أكبر من دورهم في العلن.

والسفير يمثل دولته وإستراتيجيتها، ويعبر عن رغباتها وأطماعها، ويقوم بدور المدافع عن حقوقها، والمبرر لسياساتها لدى الدولة التي يعيش فيها سفيراً، وهو - أيضاً - عين دولته الساهرة على رعاياها وامتيازاتها في الدول الأخرى، وكذلك عينها التي ترصد كل شاردة وواردة في أنحاء مدن هذه الدولة، عبر قناصله ووكلائه، يتلقى تقاريرهم، ويحللها، ويستنتج منها ما يعين وزارة الخارجية في دولته على اتخاذ مواقفها، ورسم سياساتها وتعديل خططها واتخاذ تدابيرها.. الخ.

هذا هو الوضع الطبيعي؛ مع الأخذ في الاعتبار أن كتب المذكرات عامة - بما فيها مذكرات السفراء والدبلوماسيين - لا تنجو من التبريرات والتعليلات والدفاع والميل إلى جانب دون الآخر، والتعصب لاتجاه دون الثاني، وكثيراً ما تفتقر إلى الحياد والتجرد، إنها هي - في كل الأحوال - تحمل مادة تاريخية ثرية يستطيع الباحث الحصيف استخراجها بعد تنقيتها من الشوائب المذكورة.

وتزداد هذه المذكرات أهمية وخطورة عندما تضع الظروف صاحبها في ملاسبات حساسة من حيث الزمان والمكان والأحداث، كتلك التي بين أيدينا، فهي مذكرات السفير الأمريكي في العاصمة العثمانية إبّان الحرب العالمية الأولى،

وكانت أمريكا- حينها- بعيداً عن الصراع الأوروبي، وإمبراطورياته العجوز المتهاوية، وقومياته الفتية المتنامية، وأطماعه المتصادمة؛ تقبع في الركن الغربي القصي من الكرة الأرضية، تنعم بعنفوان شباب دولتها واقتصادها، بينما العاصمة العثمانية تُعجّ بثورات الأقليات؛ خاصة الأقلية الأرمنية، وانقلاب الجمعيات الطامحة في الإصلاح، أو الطامعة في الحكم، لاسيما جمعية «تركيا الفتاة»، والتي عرفت بعد ذلك باسم «الاتحاد والترقي»، والتي أطاحت عام ١٩٠٩ بحكم السلطان الداهية عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار.

وفي تلك الأثناء يشتعل فتيل الأحداث في برميل البارود، تلك المنطقة المشتركة ما بين الشرق والغرب، بين أملاك الدولة العثمانية الإسلامية الشرقية وبين القوميات والأقليات الأوروبية المسيحية الغربية، البلقان؛ حيث تبدأ منها الشرارة الأولى التي أشعلت الحرب العالمية الأولى، أو على التحقيق كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وكان مقتل الأرشيذوق النمساوي هو المبرر لانفجار الصراعات في القارة العجوز.

في هذا الخضم المتلاطم يأتي هنري مورجنتاو سفيراً لبلاده- الولايات المتحدة الأمريكية- إلى الأستانة/ استانبول.

وما كان أغناه عن هذا المنصب أو هذا التكليف المضني في الزمان والمكان والظروف. فالرجل صديق شخصي للرئيس الأمريكي وودرو ولسن، ورئيس لجنة الشؤون المالية في حزبه، والمسئول المالي عن حملته الانتخابية التي انتهت بفوزه، وكان لمورجنتاو خبرة في عالم الاقتصاد عبر عمله في سمسة العقارات، ربما انعكست خبرته تلك على شخصيته وخبرته في عالم السياسة أو الدبلوماسية التي

دخلها سفيراً كمكافأة له من صديقه ولسون. وإن كانت مكافأة غير مرضية، قبلها مورجنثاو بعد إلحاح حاخام اليهود في أمريكا، وتدخل الرئيس ولسون.

لكن سرعان ما يعود مورجنثاو مرة أخرى إلى واشنطن بعد ستة وعشرين شهراً قضاهما في تركيا؛ ليشارك من جديد في حملة إعادة انتخاب ولسون رئيساً، وأيضاً في حملة ولسون وسياساته الرامية إلى الدخول في الحرب إلى جانب الحلفاء.

وإزاء معارضة الرأي العام الأمريكي بل وفتوره تجاه هذه الحرب؛ يرى مورجنثاو - عبر مقترحات البعض - أن يدوّن مذكراته كسفير شاهد على أحداث الحرب وأسرارها لدى اطلاعه عليها أثناء إقامته في الآستانة، وبالفعل يدوّنّها لتتشر كسلسلة مقالات تصنع طفرة في أعداد توزيع المجلة التي تنشر تلك المقالات، والأهم من ذلك؛ تساهم بشكل فعال في حشد الرأي العام الأمريكي باتجاه سياسة ولسون لدخول الحرب، ومن ثم إنهاؤها لصالح الحلفاء ثم الجلوس في مقعد الحكم لتقسيم تركة المنهزمين، أو إقرار السلام العالمي بسرعة، كما يرى مورجنثاو.

وعندما نطالع عنوان «قصة السفير مورجنثاو» تملكنا الإثارة، فالقصة في حد ذاتها - أيّاً كانت - هي شيء ممتع ومثير، وما أكثر إثارتها إذا كانت قصص واقعية في حبكة كهذه. تحمل من الأسرار والمفاجآت ما يرغم القارئ على المتابعة والمواصلة حتى آخر كلمة.

لكن الأكثر إثارة من «قصة السفير مورجنثاو» هي تلك «القصة التي وراء قصة السفير مورجنثاو».

فإذا كانت الأسرار ممتعة ومثيرة، فإن الأسرار التي وراء الأسرار بالتالي تكون أكثر متعة وأعمق إثارة، لكنها في حالتنا تلك صادمة.

فالكاتب والمؤرخ الأمريكي «هيث لوري» يجري دراسة تحليلية ووثائقية حول هذه «المذكرات» ، أو هذه «القصة» ، فيكشف لنا الكثير من القصص التي وراء القصة.

اعتمد «هيث لوري» على آلاف الأوراق التي تركها «مورجنتا» في أرشيف المكتبات الأمريكية، ما بين يوميات ومذكرات وخطابات وتقارير.. الخ، وقارنها بما جاء في الكتاب، وكانت المفاجأة أن الكتاب في الكثير من الأحيان قصص ملفقة وتحوير للنصوص والأحداث في حبكة صحفية محترفة؛ صنعت لجلب الإثارة والتأثير على الرأي العام الأمريكي، دون اعتبار للحقائق أو التاريخ، بل والأدهى من ذلك أن هذا الكتاب / القصة اعتبر كمرجع ومستند رسمي استند عليه الكونجرس الأمريكي كوثيقة إدانة للأتراك في ارتكاب «حكومة الاتحاد والترقي» جريمة إبادة جماعية ضد الأقلية الأرمنية، رغم أن الكتاب كان مجرد «قصة» ربما لا ترقى أن تدخل في مجال الأدب، وتتوقف مكانتها عند «البروباجندا».

وتتوالى المفاجآت التي يكشف عنها «هيث لوري» في تشريحه الوثائقي لهذا الكتاب؛ حيث يتناول المشاركون الحقيقيون في تدوين الكتاب وصياغته وتعديله، بل وفكرة الكتاب من أساسها، والتي تطورت لتصبح فيلماً سينمائياً لولا تدخل الرئيس «ولسون» الذي رفض فكرة تحويل الكتاب إلى فيلم؛ لأنهم: «تمادوا في هذه المسألة أكثر من اللازم»!؟

رغم المتعة والإثارة التي في الكتابين، إلا أن هناك جوانب أخرى تسترعي الانتباه، وتدق ناقوس اليقظة:

- مدى الاعتماد على مصداقية كتابات السفراء والدبلوماسيين.

— البحث الدقيق في مسلّمات وأسس القضية الأرمنية التي كان كتاب «مورجنثاو» أحد أكبر دعائمها، أو هو بالفعل أحد أناجيلها الأربعة.

والآن نترك للقارئ والباحث المجال لقراءة (القصة التي وراء قصة السفير مورجنثاو) وهي الدراسة التحليلية والوثائقية التي كتبها الباحث والمؤرخ الأمريكي «هيث لوري» ناقداً ما كتبه «مورجنثاو» في مذكراته. عسى أن تكون المتعة والمفاجآت بداية جديدة للبحث المتعمق والجاد. والله من وراء القصد.

أحمد عبد الوهاب الشرقاوي

المركز الثقافي الآسيوي

harpgeneraton@yahoo.com